حرية الفكر

بقلم الدكتور كامل عياد

دعيت لأتكلم عن حرية الفكر وانها لمناسبة ثمينة نادرة، أن يتاح مثل هذا البحث امام رجال الفكر والادب في العالم العربي ، وأن يكون ذلك في لبنان ، وفي هذه الفترة التي يُكبلُ فيها الفكر في معظم الاقطار العربية ، فليس فينا من لم يناضل ليكون حر الفكر ومن لم تجرحه التهجم او تعضه القيود في الدفاع عن حرية الفكر ، كما ان لبنان كان دوماً موطناً لفكرة الحرية ، والسابقَ في التطلع الفكري بين بلاد العرب ، وهو لا يزال كذلك رغم كل ما زحف اليه من عوامل الافساد .

وقصة الفكر ، وحرية التعبير ، ملحمة قديمة قديمة ، بدأت مع دبيب الانسان على هذا الاديم . واذا شئتُ أن استعمل المصطلحات الدينية قلتُ انه منذ شرد الله آدم على الارض ، ومنذ ربط رب الارباب زيوس الاله بروميتوس الى صخور القفقاس ، والفكر الحر شريدٌ على تراب الارض مضطهد شهيد. ولقد رمز القدامى ، سواء بقصة آدم في سفر التكوين او في اسطورة بروميتوس الى ان يقظة الفكر في الانسان كانت السببَ في ابعاده عن الجنة الى الارض ، والسببَ في العذاب الذي يلاقي عليها . ان اللعنة التي حُكم عليه بها هي ان يظل متمرداً ابداً ، متطلعاً دوماً الى افق جديد ... لا يُرضيه شيء فهو لا يمكن ان يفعل غير ذلك ما دامت شعلة الفكر تلتهب في اعصابه وقلبه .

ونحن في الواقع متفقون عند النقطة الاولى من الموضوع وهي ان الفكر انما هو فكر لأنه حر ولا بد من حريته ليظل فكراً فلا يتحول الى سرمدية الغريزة ... نحن متفقون حول ضرورة الحرية للفكر وتلازم الفكر والحرية . وهل يمكن ان نختلف ؟ ونحن باسم الفكر اجتمعنا وباسم حريته نبدأ كل صلاة ونضال .

وعلى ان المتاهات ومفارقَ الطرق تتبدى لنا عند اول خطوة نخطوها بعد هذه النقطة الاولى . فعن اي حرية نتكلم وعن اي فكر ؟ ان حرية الفكر مثلَ سائر انواع الحرية ليست مفهوماً مطلقاً مجرداً عن الواقع ، خارج الزمان والمكان ليست فكرة من عالم المثل ولا ترفاً نزين به جدران قاعة الاستقبال ولكنها من صميم الكيان الانساني ومن اسس الكبرياء البشرية . انها ما جعل الانسانَ يستحق انسانيته فهي لذلك قيد قبل ان تكون انطلاقاً ، وحدٌ قبل ان تكون تمرداً ، وشروط مادية قبل ان تكون مُثلاً ومنىً مجنحة .

فاذا لم يحدد مفهوم الحرية فانا لا نأمن ان ينقلب الى عكسه . ونحن اذا سمعنا مَن يدافعون عن الحريات كلها ، على وجه الاطلاق ، فمن حقنا ان نتساءل : الا يقصدون بذلك حرية الاقوياء في استعباد الضعفاء او حريةَ اصحاب الاموال استثمار العمال ، اوحريةَ الاحتكار او حرية الاتجار بالرقيق الابيض ؟

واذا رأينا فئة من الناس يطالبون مثلاً بحرية الصحافة المطلقة فنحن نعرف سلفاً ان بعضهم انما يريدون تبرير غاياتهم في ان يكذبوا ويضللوا ويرتكبوا كل خيانة دون ان يتعرضوا لأي عقاب .

ثم ماذا يفيد الانسانَ ان نقول له انت حر تستطيع ان تفكر كما تشاء دون ان نهيء له الوسائل المادية لهذه الحرية ، ونجعله قادراً على جمع المعلومات الصحيحة اللازمة ونفسح له المجالَ للتعبير عن آرائه ونشر افكاره ؟ ما الفرق بين ذلك وبين ان نقول للعاطل عن العمل : انت حر في ان تموت من الجوع ؟

هناك في الواقع حريات عادلة واخرى غير مشروعة واذا لم يكن من الصعب كثيراً التفريق بينها فانه من المستحيل التوفيق بينها . ان حرية الأسرة مثلاً تتعارض مع حرية العهر كما ان حرية الفلاح تتنافى مع حرية المرابي .

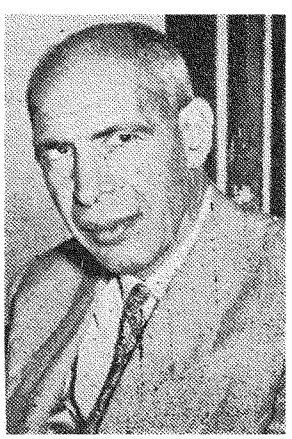

يتبين من ذلك انه لا بد قبل المطالبة بحرية الفكر من ان نحدد معنى هذه الحرية . ولهذه الغاية ، من الضروري ان نستعرض تطور حرية الفكر في مجرى التاريخ ... بعض الاستعراض .

ان اليونانيين القدماء هم الذين سبقوا كافة الامم في الدعوة الى حرية الفكر وحرية المناقشة ، واستطاعوا قبل غيرهم ان يحققوا هذه الحرية على اوسع مقياس ممكن . وقد

كانت هذه الحرية الفكرية شرطاً اساسياً لما امتازوا به من تأملات فلسفية ، وما بلغوه من تقدم علمي ، وما ابتكروه من منظمات سياسية ، وما انفردوا به من ابداع فني وأدبي . فآدابهم مثلاً لم تكن لتتصف بهذا العمق والسمو والكمال لو انهم منعوا من البحث في جميع شؤون الحياة وانتقادها بكثير من الحرية . ولكن حتى لو فرضنا انهم لم يبدعوا تلك الروائع الخالدة ، التي ورثتها عنهم الشعوب المتحضرة ، فان مجرد تمسكهم بمبدأ حرية الفكر يؤهلهم لاحتلال اسمى المراتب بين قادة البشرية والمحسنين اليها .

ويبدو ان اهم عامل ساعد اليونانيين على التحرر الفكري ، هو انهم ، لما برزوا فجأة على مسرح التاريخ ، لم يكن لديهم كتب مقدسة ولغة ميتة وآداب متوارثة وأئمة معترف بهم . انه لم يكن لديهم ، كما قال (باكون) القديم من العلم والعلم بالقديم . ولاشك في ان اضطرار اليونانيين الى الانتشار على سواحل البحر الأبيض المتوسط ، للتجارة وكسب الرزق واحتكاكهم لهذه الغاية ، بكثير من الشعوب القديمة المتحضرة ، ثم اطلاعهم على مختلف الأنظمة والعادات — كل ذلك قد اثار فيهم روح الشك والانتقاد تجاه كل التقاليد والسلطات ، ومهد لهم السبيل الى التفكير الحر .

اذا رجعنا الى مباحث اليونانيين الفلسفية ودراساتهم التاريخية وروايتهم التمثيلية ، نراها تتعرض الى كافة العقائد الدينية والمشاكل السياسية والقواعد الاخلاقية دون تفريق ، وتعالجها بمنتهى الصراحة ، فتناقشها وتنتقدها ولا تتورع عن السخرية بالمؤسسات والتقاليد والآراء . ونستطيع الادعاء بان حرية الفكر التي كان يتمتع بها اليونانيون القدماء لا يمكن ان نجد مثيلاً لها عند جميع الشعوب قبل القرن الثامن عشر .

وحوادث الاضطهاد الفكري القليلة التي يرويها التاريخ عن اليونانيين وهي لا تتجاوز الثانية ، لا تناقض هذه الدعوى ، بل تؤيدها .

فالذين اتهموا (آناكساغوارس) مثلا بالخروج على العقائد الدينية انما كانوا بعض خصوم (بريكلس) السياسيين . وقد عجزوا عن مهاجمة زعيم (آثينة) مباشرة فارادوا تشويه سمعته بمحاكمة صديقه الفيلسوف . وكذلك لم تكن قضية (بروتاغوراس) سوى مؤامرة سياسية في الظروف الحرجة للحروب البيلوبونزية .

اما الحكم على سقراط فانه من أروع الشواهد على سلطان حرية الفكر . ان خصوم الفيلسوف السياسيين والشخصيين ، الذين ضاقوا ذرعاً من إنتقاداته للديموقراطية المشوهة ، قد اتهموه بانه لا يحترم الالهة وانه يفسد الشباب . وقد اظهر هؤلاء الخصوم مهارة كبيرة في انتقاء اعضاء المحكمة الشعبية ، الذين بلغ عددهم ٥٠٠ ، فلم يكن بينهم الا القلائل ممن يحسنون القراءة والكتابة . رغم ذلك كانت الاكثرية مستعدة لتبرئة سقراط لو قبل اقتراح المحكمة بان يتخلى عن عادته في الجدال والمخاصمة والوعظ ، فيترك مواطنيه في سلام دون ان يزعجهم بشكوكه الابدية . ولكنه رفض قائلا : « كلا ما دام وجداني ، هذا الصوت الصغير الباطني ، يأمرني بالاستمرار في ارشاد الناس الى طريق العقل الصحيح فانني سأتابع اعتراض كل من اصادفه وسأقول له ما يجول في خاطري ، مهما كانت النتائج ... »

وقد اضطرت المحكمة ، بعد هذا التحدي ، ان تحكم عليه بالموت — ولكن بأكثرية ضئيلة . ثم انها سمحت بمهلة ثلاثين يوما ، يستطيع خلالها ان يهرب من آثينة اذا شاء . ولكنه أراد أن يجعل من مماته أيضاً أمثولة خالدة في التمسك بحرية الرأي واحترام القوانين السائدة .

ولا بد لنا هنا من الملاحظة بان (سقراط) كان ، عند الحكم عليه قد تجاوز السبعين من العمر وأنه قد قضى قبل ذلك مدة طويلة وهو يبشر بالاراء ذاتها دون ان يمنعه أحد . فاذا أضفنا ذلك الى المؤامرات السياسية والشخصية التي أدت الى محاكمته ، ثم لاحظنا معارضة عدد كبير من اعضاء المحكمة لادانته — ندرك روح التسامح والحرية التي كانت سائدة إذ ذاك في آثينة ، ويتضح لنا انه لم يكن من السهل إثارة تعصب الجماهير إلا باللجوء الى المكر والدسيسة .

ان دفاع (سقراط) عن حرية الفكر ، كما نقله افلاطون ، لا يزال ابلغ خطاب القي حتى الان في هذا الموضوع . فقد قال :

« لا يحق لأي شخص على وجه الارض ان يفرض على شخص آخر ما ينبغي ان يعتقده او ان يحرمه من حق التفكير كما يشاء . ان الانسان يستطيع ان يعيش سعيداً دون اصدقاء ودون مال ودون اسرة ، بل دون بيت — ما دام ضميره مرتاحاً . ولكن بما انه ليس في قدرة احد الوصول الى احكام صحيحة دون تمحيص دقيق لكل مشكلة ودون معرفة ما يؤيدها وما يعارضها ، فمن الضروري ان يفسح المجال امام الناس لمناقشة جميع المسائل بحرية تامة ودون تدخل من قبل السلطات .

وهكذا كان سقراط اول مفكر برر حرية التفكير بالاستناد الى المبدأين الاساسيين التاليين : ١) الاعتراف باستقلال وجدان الفرد و ٢) الاعتراف بالاهمية الاجتماعية للمناقشة والنقد .

وبالاجمال نستطيع القول بان اليونانيين القدماء كانوا يعتبرون حرية الفكر حقاً طبيعياً لا مجال للمناقشة فيه . على ان هذه الحرية لم تكن نتيجة تشريع مفروض . ولذلك لم تسلم من بعض النكسات ولم تمنع اضطهاد بعض المفكرين . ولكن حوادث الاضطهاد القليلة لم تعرقل تقدم المعرفة العلمية وازدهار الفنون والآداب .

بعكس ذلك كانت الحالة في القرون الوسطى . فان محاولة الكنيسة المسيحية فرض سيطرتها الدينية على العقول كادت ان تقضي على كل حرية في التفكير . لذلك لا نجد ، مدة عصور طويلة ، الا آثاراً باهتة للبحث العلمي والابداع الفني والادبي .

وقد انتقلت ، في تلك العصور ، فلسفة اليونانيين وعلومهم الى المسلمين الذين اتصف بعض خلفائهم بالتسامح وافسحوا المجال لحرية الفكر . فأدى ذلك الى ازدهار للعلوم والفنون والاداب مدة من الزمن .

الا أن الكثير من الخلفاء والحكام لم يدركوا قيمة حرية الفكر . فقاموا يضطهدون كل رأي جديد وانتهى الأمر الى الجمود والتأخر .

ثم كان عهد النهضة في اوروبا . ولا شك في ان الاحتكاك بين الشرق والغرب كان له اكبر تأثير في تنبيه الاوروبيين الى احياء تراث اليونان والرومان . وقد استيقظ اذ ذاك العقل الاوروبي ولكنه سرعان ما اصطدم بسيطرة الكنيسة فاضطر الى النضال عدة عصور حتى تم له الانتصار والظفر بحرية الفكر .

اذا رجعنا الى تاريخ حرية الفكر منذ عهد اليونان حتى اواخر القرن الثامن عشر ، نرى ان الجهود كانت متمركزة حول تحرير الفكر من قيود العقائد الدينية . ولكن بعد تقلص سيطرة الكنيسة ونشأة الدول القومية الحديثة وتقدم العلوم والآداب اكتسبت حرية الفكر مفهوماً جديداً ، واعني بذلك التحرر من القيود التي تفرضها الحكومات على المباحث العلمية والاراء السياسية والمذاهب الاجتماعية ، والتعاليم الاخلاقية . وقد تبلور النضال في سبيل حرية الفكر حول المطالبة بالتعليم العلماني واستقلال الجامعات وحرية الصحافة والنشر والكلام ، ولا شك في ان بعض الامم الغربية قد نالت قسطاً كبيراً من هذه الحريات في

القرن التاسع عشر . لكن الاوضاع قد تغيرت في اكثر البلدان بعد الحربين العالميتين ، فتقلصت حرية الفكر او شوهت ، ليس بسبب القيود القانونية التي اضطرت الحكومات الى فرضها فحسب ، بل ايضاً بتأثير المصالح الاقتصادية وتحت ضغط المنظمات الاجتماعية .

★

وبعد فلعلي استطيع ان اخرج من هذه الجولة التاريخية بتعريف للحرية الفكرية هو التعريف الذي وضعه الفيلسوف الالماني المعاصر (ياسبرس) من **ان الحرية مرادفة للجهر بالحق. فالانسان الحر هو الذي يقول الحقيقة . وليس المقصود هنا الحقيقة المطلقة ، الابدية بل الحقيقة النسبية التي يستطيع البشر في زمن معين ، ادراكها . على ان اعترافنا بنسبية الحقيقة ليس معناه نشر كل ما يخطر على اذهاننا دون بحث ودرس وتمحيص ونقد اذ لا يمكننا ان نفهم الحرية اذا لم نشعر بالمسؤولية التي تفرضها علينا .**

ولعلكم تلاحظون ، وتعجبون في الوقت نفسه اني آثرت طريق التاريخ على طريق الفلسفة في الوصول الى تعريف الحرية. والواقع اني فضلت الطريق الذي يجعل الحرية فكرة حية عملية ، واقعية على الطريق الذي يضيعها في ظلمات الفكر ومتاهات الميتافيزيك . فضلت ان أتبعها في الحياة التي تولد وتنمو وتتطور على ان احددها حسب اهواء الفلاسفة ، لانها قبل كل شيء مشكلة حياة وليست مشكلة فكر فحسب ، وهي ، اذا شئنا الرجوع الى الصعيد الفلسفي ، لم تكن مشكلة في العصور القديمة ، او على الاقل لم تكن تحمل المعنى الذي تحمله اليوم . وما برزت كمشكلة الا حين ظهرت عملياً في الحياة . وبعد الثورة الفرنسية فقط وبعد ظهور الحرية في الميدان السياسي ، فكر (كانت) بالمشكلة . ولما عجز عن تركيز مبدأ الحرية على اساس علمي فلسفي حاول ارجاعه الى مفهوم الواجب الاخلاقي . فقال ان الانسان لا يكون حراً الا حين يشعر بالواجب. ولكن هذه التعاليم ، التي قيل انها تصلح للملائكة لا للبشر ، والتي لعبت دوراً هاماً في تنمية روح الاخلاص والطاعة والتضحية عند الشعب الالماني ، قتلت في الوقت نفسه روح الحرية ، ومسخت افراد الشعب الى آلات تتحرك بأوامر الملوك والحكام والقادة . و(شوبنهاور) الذي اراد اختصار العالم كله الى تصور وارادة قد ابتعد بفكرة الحرية الى عالم المثل الميتافيزيكية . وليس التطور المبدع لدى (برغسون) اقرب الى الواقع من مبدأ الواجب المطلق لدى (كانت) لان التطور لا يصبح مبدعاً الا في جو الحرية فهو نتيجة لها وليس سبباً... وماذا اعدد بعد ؟ ان الفلسفة تفشل ، غالباً في فهم الحرية ، والحرية الفكرية خاصة ، الا حين تفهمها على اساس من التطور التاريخي . وهذا ما رأيناه في تعريف (ياسبرس) من ان الحرية هي الجهر بالحق .

قد يبدو لأول وهلة ان الفكر حر بطبيعته فكل فرد يستطيع ان يفكر كما يشاء ما دام يحتفظ لنفسه بما يفكر . ولا يقف هذا التفكير الا عند الحدود التي تفرضها بحارب الفرد الشخصية وقوة خياله .

على ان هذه الحرية الطبيعية التي يتمتع بها التفكير الفردي لا قيمة كبيرة لها . انها لا ترضي صاحبها ذاته ، بل ربما تزعجه وتؤلمه اذا لم يسمح له بأن يصارح الآخرين بأفكاره . وهي لا قيمة لها ايضاً في نظر هؤلاء اذا لم يطلعوا عليها .

وعدا ذلك فمن الصعب جداً اخفاء الافكار التي لها شيء من السيطرة على العقل . ان الشخص الذي يسوقه تفكيره الى الشك في اراء ابناء جنسه وفي عاداتهم فيستهجن عقائدهم ويتصور طريقة للحياة أفضل من التي يتبعونها — ان مثل هذا الشخص ، اذا كان مؤمناً ، باعتقاداته يستحيل عليه ان يكتم معارضته للآخرين ومخالفته لارائهم سواء بسكوته او تلميحاته او سلوكه العام . بل ان الكثيرين يفضلون مجابهة الموت على عدم الجهر بأفكارهم ، كما كان الامر مع (سقراط) في القديم وكما هو مع امثاله حتى يومنا هذا .

« يجب ان يذكر الحكام والباحثون ان تجارب التاريخ تبرهن على ان كل اضطهاد للفكر لم يؤد في النتيجة الى الغاية المقصودة ، ويجب لذلك ان يعتبر تدبيراً خاطئاً. إن الاضطهاد يزيد المخلصين تمسكاً بآرائهم واندفاعاً في الدعوة اليها . وفضلاً عن ذلك ، فمن المستحيل في العصر الحاضر خاصة الحيلولة دون انتشار الافكار واطلاع الناس عليها بطريقة من الطرق . »

وهكذا فان حرية الفكر ، بمعناها الصحيح ، تتضمن في الوقت نفسه حرية الكلام والنشر .

وقد اصبحت الامم المتحضرة منذ القرن الثامن عشر تعتبر حرية الكلام حقاً طبيعياً لا جدال فيه ، ولكن البشر لم يحصلوا على هذا الحق الا بعد جهاد طويل وضحايا كثيرة . وكان لا بد من مرور عصور عديدة قبل ان تدرك الامم قيمة حرية الفكر وفائدتها .

ان المجتمعات البشرية ، ما عدا القليل منها ، كانت دوماً

تقاوم الافكار وتعارض حرية التفكير والتعبير . ومن السهل ان نكتشف اسباب هذه المعارضة :

فان افراد البشر بصورة عامة يميلون الى الكسل الفكري. ولذلك نراهم في حياتهم الفكرية يتمسكون ببعض العقائد المتوارثة التي اقتبسوها دون بحث وتمحيص كما يقاومون ، بصورة غريزية ، جميع الاراء والعقائد التي تخالف ما ألفوه . يضاف الى ذلك الخوف من ان تؤدي الافكار الجديدة الى زعزعة كيان المجتمع وقواعد نظامه . وقد كان الناس وما زالوا يزعمون بان من مصلحة الدول ومن الخير لها ان تؤمن الاستقرار التام وتحافظ على المؤسسات القائمة والتقاليد المتوارثة . لذلك يرى امثال هؤلاء في الافكار الجديدة مصدراً للقلق والخطر ويصفون كل من يشكك في المبادىء السائدة ويتساءل عن منشئها وحقيقتها وحكمتها بانه مشاغب ومفسد .

ومما يقوي النزعة الغريزية المحافظة الانقياد للعقائد الغيبية والخرافات والاساطير التي تضم كل انتقاد للنظام الاجتماعي المتوارث بانه كفر وزندقة .

ولكن المصيبة الكبرى هي ان هناك في كل مجتمع عناصر قوية تؤلف طائفة او طبقة محدودة، متضامنة تتمتع بامتيازات خاصة وترى من مصلحتها التمسك بالاوضاع السائدة . فكانت دوماً وما زالت تسرع الى استثمار تلك الدوافع النفسية في سبيل مكافحة الافكار الجديدة . وخطر مثل هذه الفئات هو انها لا تهتم الا بمصلحتها الخاصة ،وانها تتصف بالوعي الذاتي وتملك الوسائل اللازمة لخنق الافكار .

لا شك في ان حرية الفرد في التعبير عن آرائه حول اي موضوع دون خوف من السلطات او المنظمات او سائر افراد المجتمع قد اصبحت في الوقت الحاضر مبدأ معترفاً به عند أكثر امم العالم حتى أنه قد ذُكر في ميثاق حقوق الانسان لمنظمة الأمم المتحدة .

ولكن ... رغم ذلك لا يمكن القول بان جميع الدول المشتركة في هذه المنظمة قد نصت في دساتيرها وقوانينها على حرية المواطنين في التعبير عن آرائهم ، بل هناك شواهد كثيرة تدل على ان حتى الدول التي كفلت دساتيرها وقوانينها هذا الحق لا تتورع عن اضطهاد حرية الفكر عملياً .

وليس من فرق كبير بين ان يتم هذا الاضطهاد بمخالفة النصوص القانونية صراحة او بالاستناد الى تفسيرات اضافية او انظمة استثنائية . فالنتيجة العملية واحدة وهي ان الحكومات رغم اعترافها مبدئياً بحرية المواطنين في التعبير عن ارائهم ، ترى ان هذا الحق ، مثل سائر الحقوق ، لا يجوز ان يكون مطلقاً دون اي قيد . انه في سبيل المحافظة على كيان المجتمع ومصلحته لا بد حسب رأيها ، من تحديد حقوق الافراد والجماعات .

على هذا الاساس يبرر كل مجتمع القيود التي يفرضها حتى على ابسط الحقوق الطبيعية ، اذ لا يمكن لاي مجتمع، دون هذه القيود ، ان يحافظ على نظامه وكيانه .

ولكن هل حرية التفكير والتعبير عن الرأي من الحقوق التي تشبه غيرها والتي يجب تحديدُها وتقييدها ؟

ويبدو أن هناك فرقاً جوهرياً بين حرية التفكير وبين سائر الحقوق . فبينما تؤثر القيود المفروضة على هذه الحقوق في سلوك جميع افراد المجتمع على السواء نلاحظ بان تقييد حرية الفكر لا يشمل الا عدداً ضئيلاً من الافراد اي اولئك الذين يستطيعون تكوين آراء جديدة ، خاصة بهم ويجسرون على الجهر بها مهما كانت ثورية وغير مألوفة .

رغم هذا الفرق نرى القائمين على الحكم وبعض الباحثين يدعون بان من واجب الحكام المسؤولين الحيلولة دون انتشار كافة الآراء « الهدامة » الضارة ، لأنها يمكن ان تدفع الناس الى اعمال تنافي مصلحة المجتمع وتفسد نظامه . وهم يذهبون الى ان الشرور التي تنجم عن اذاعة التعاليم « الهدامة» تفوق الضرر الذي يحدث مثلاً من سرقة احد الاشخاص لفرس جاره . لذلك لا بد للحكام الذين تقع عليهم تبعة السهر على مصلحة الدولة من ان يمنعوا انتشار كل رأي يعتقدون بأنه خطر يمكن ان يهدد المبادىء السياسية والدينية والاخلاقية التي يقوم عليها المجتمع .

هنا يجدر بنا أن نذكّر امثال هؤلاء الحكام والباحثين بان تجارب التاريخ تبرهن على ان كل اضطهاد للفكر لم يؤد في النتيجة الى الغاية المقصودة . ويجب لذلك ان يعتبر تدبيراً خاطئاً .

فالاضطهاد انما يزيد المخلصين تمسكاً بارائهم واندفاعاً في الدعوة اليها . وعدا ذلك فانه من المستحيل في العصر الحاضر خاصة ، الحيلولة دون انتشار الافكار واطلاع الناس عليها عن طريق من الطرق .

لقد انقضى زمن طويل قبل ان تنكشف هذه الحقيقة .

ويبدو ان القلائل جداً من الناس قد ادركوها حتى الان .

ثم كيف نميز الآراء الهدامة ، الخطرة من غيرها ؟ ما هي المعايير والمقاييس التي يمكننا الاعتماد عليها ؟ وهل يجوز ان نترك تقدير ذلك الى الحكام الذين يتبدلون باستمرار والذين كثيراً ما تتضارب وجهات نظرهم ؟ الا يروي لنا التاريخ ان كثيراً من الآراء والافكار التي اعتبرها بعض الحكام في زمن معين ، فاسدة وضارة ، يخشى منها على سلامة المجتمع قد اثبتت الايام بعد ذلك صحتها وفائدتها ، فادرك الجميع ، ولكن بعد فوات الأوان ، ان اضطهاد اصحابها كان خطيئة وان عدم انتشارها في حينها كان خسارة للمجتمع ؟ بل الا يكاد يكون هذا صحيحاً بالنسبة الى كل الافكار الجديدة حين ظهورها لأول مرة ؟

وفي الواقع فان الآراء والافكار الجديدة التي يمنح الحكام نشرها ويقاومها الرأي العام ليست على الاغلب خطرة في ذاتها وانما تلصق بها هذه الوصمة لمجرد انها غير مألوفة ولأنها تتعارض مع العقائد المتوارثة والمعلومات الشائعة .

*

وبعد فأين الوطن العربي والفكر العربي من مشكلة الحرية اليوم ؟ ان نقطة الأنطلاق في رأيي ، يمكن ان تبدأ بشكل سلبي وذلك بان نفضح ونحدد اعداء الفكر الحر والمستثمرين للفكر العبد . وفي هذا المجال نلاحظ : اولاً) اننا لا نزال الى حد كبير في المرحلة التي مر بها الغرب قبل القرن الثامن عشر ، واعني مرحلة الاصطدام مع العقائد الدينية . فاول ما يرمى به كل حر في البلاد العربية انه زنديق ، كافر ، ملحد . وقد يكون ذلك عن حق أو غير حق ولكنه على اي حال وجه من وجوه الضغط الفكري الواضحة ولعل اخطر ما يتبدى هذا الضغط حين تتبناه عناصر متعلمة مستثمرة .

ونحن ثانياً) واقعون على الرغم منا تحت الكابوس الاستعماري . وليس الاستعمار ظاهرة سياسية او اقتصادية فحسب ، ولكنه أيضاً مؤسسات تعليمية وتيارات فكرية وكتب وصحف ومدارس قائمة بكل مكان وتحت اسماء مختلفة ، وهو أيضاً وأيضاً مصالح مادية واعوان منتشرون وحكام بأمرهم يحكمون .

ونحن ثالثاً) نناضل ضد عدد من المؤسسات الاجتماعية البالية ومن النظم والتقاليد الرجعية او المحافظة . وقد غزتنا الحضارة الغربية غزواً سريعاً جعل التطور الذي لا بد منه في حياتنا الاجتماعية يشبه في سرعته ان يكون ثورة . وكلنا يشعر مثلاً بالهوة التي تفصل بين الجيل الذي هو منه والجيل السابق له والجيل الذي منه اولاده .

ونحن رابعاً) في بدء الطريق الى النضال الطبقي ضد فئات مستثمرة ، يتزايد نموها وتتشعب مصالحها في المجتمع العربي . وهذه الطبقات تجد في الكثير من الافكار الغربية ولا سيما في الحرية المطلقة فلسفة ترضيها وتتناسب مع مصالحها وواقعها . ومن الواضح ان تشويه الوجه العادل للحرية الحقيقية يؤدي الى نفس النتيجة التي يؤدي اليها قمع الفكر بل لعله اشد اذى وخطراً .

وهذه الوجوه الاربعة للضغط الفكري في العالم العربي ، بعد هذا كله ، يتعاون بعضها مع بعض ويستمد بعضها قوته وبقاءه من بعضها الآخر . فالنضال اذن ضدها نضال مرير ونضال مرير .

أما خطوط الطريق للعمل النضالي فيخيل الي أن ثمة ثلاثة معطيات اساسية لا بد من اقرارها اولاً بين يدي العمل ، نستمد احداها من تاريخنا العربي والثانية من المفهوم الصحيح للحرية والثالثة من حاجات المجتمع العربي الحديث .

الاولى — ان الحرية الفكرية هي من التقاليد الرئيسية في الفكر العربي . والنزعة العقلية الحرة ، حتى من سلطان الدين ، هي النزعة البارزة الاولى في التراث العربي الفكري منذ تلمساته الاولى حتى ظهور اقطابه الكبار . فالمعتزلة ناقشوا الدين على اساس العقل وذهبوا في جدال الحرية الى انه ليس من العقل ولا العدل تكليف الانسان بالواجبات الدينية والاخلاقية وتحميله تبعة اعماله ومجازاته عليها ، اذا لم يعترف له سلفاً بحرية الاختيار . وقد بالغوا في التمسك بهذا الرأي حتى قال عنهم المستشرق (غولد زيهر) انهم في سبيل الدفاع عن حرية الانسان لم يتورعوا عن تقييد ارادة الالـة . فالله عندهم يستحيل عليه ان يخالف العدل بينما وصفوا الانسان بقدرة الاختيار بين الخير والشر .

والمفكرون المسلمون وان لم يتكلموا صراحة عن حرية الفكر الا ان موقفهم من النزاع بين الدين والعقل لا يترك اي مجال للشك في تمسكهم بهذه الحرية فلم يكونوا يقبلون بأي سلطة فوق سلطة العقل او بأي قيد عند البحث عن الحقيقة .

هذا الحسن بن الهيثم مثلاً : وهو من اعظم العلماء الذين انجبتهم الانسانية ، يصرح بانه نشأ متشككاً في جميع الآراء

والعقائد ثم انتهى بعد البحث و التأمل الى انكار كل ما لاتؤيد الحواس وجوده او يبرهن العقل على صحته ، ثم هذا الفيلسوف ابن رشد يعلن في رسالته (فصل المقال) بانه حين تتعارض العقيدة والعقل فانه لا يتردد في ترجيح حكم العقل .

النقطة الثانية : ان نفهم الحرية بالمفهوم الاجتماعي وليس بالمفهوم الفردي . ان الحرية الفردية المطلقة ، من طراز القرن التاسع عشر ، قد انتهى عهدها وهي اذا شئت التحديد نوع من الأنانية . وانما يجب ان تفهم الحرية على انها القيد الواعي وعلى انها حرية التقيد أي حرية الارتباط لا الانعزال . ولئلا يساء فهم هذا القيد واستغلاله فاني احدده بأنه كل ما يسيء الى الكيان القومي العربي العادل الذي نعمل على اقامته وكل ما يجمد الاوضاع الاجتماعية التي نعمل على تقويضها . فإننا مثلاً لا يمكن ان نقبل بحرية الخيانة او حرية الاستثمار . فالحرية الحقيقية هي ان نشعر بهذا الارتباط الصميمي مع المجتمع العربي وندرك ضرورة هذا الارتباط وننـدفع للعمل بما يتطلبه. **واما الثورة التي يعلنها بعض الفنانين الطالمين بالاستقلال الشخصي والحرية الطليقة فهي ثورة زائفة ما داموا يعيشون في مجتمع يباع فيه الناس ويشترون ، ومن جملتهم الفنانون والكتاب، بيع الخراف . ان هذه الثورة نوع من الجبن المتأنق وهي هرب من المعركة ولا يمكن ان يكون للفن اي مهمة انسانية منفصلة عن وظيفته الاجتماعية ما دام قبل كل شيء عملاً اجتماعياً لا معنى مجرداً فحسب .**

النقطة الثالثة : ان نؤمن بأن الوطن العربي بحاجة الى جميع الامكانيات الكامنة في افراده . بحاجة الى كل فكرة تنبت فيه . ولا سبيل الى ابراز هذه الامكانيات الا باقرار حريه الفكر . واذا كنت ارثي لتلك الامكانيات التي ولدت وماتت وما تزال تولد وتموت في الوطن العربي دون ان يتاح لها سبيل الظهور والتحقق فاني اعتقد ان توفير الحرية للطليعة المبدعة هو شرط عاجل واساسي للابداع ولاستمرار الابداع. وميدان العمل والانتاج في الوطن العربي ارحب بكثير من ان تملأه قبضة من المفكرين والعلماء او يكفيه اتجاه محدد من الفن ، أو ترضي حاجاته عدة مذاهب من الادب .

على ضوء هذه النقاط الثلاث من جهة ، والعوامل الاربعة التي سبقتها من جهة اخرى نجد ان طريق العمل للحرية الفكرية قد اتضح . فلا بد ، اولاً : من النضال للوصول الى حرية الفكر ، لا بد من وجود شهداء . وقد يكون من السهل الكلام على حرية الفكر ولكن ما اصعب أن يكون الفكر حراً . ما اصعب أن يحقق حريته . اذ لا يكفي أن تقول انك حر وأن تريد الحرية ولكن يجب ان تعرف كيف تكون حراً . وليس النضال الذي سنقوده بالنضال السهل او المحدود اذا نحن تصورنا القوى التي ترابط على مفارق الطرق . على اني أتفاءل دوماً حين ارى الضغط الفكري وتساقط الضحايا . فذلك يعني ان قضية الحرية اصبحت عميقة ، عريقة في النفوس .

والفكر بعد لا يمكن ان يموت . قد تمنع جريدة من الصدور وقد يسجن شاعر ويحرق كتاب وتسلب الجنسية من مفكر ولكن اعداء الفكر الحر لا يظفرون الا باحراق الورق وباضطهاد الجسد . اما الفكر الحر فيهرب دوماً من قبضاتهم وينتشر بالرغم عنهم من خلال قضبان السجن ومن وراء اللهيب ورغم المنفى والحرمان .

ولا بد ثانياً من العمل ضد اسباب التمع الفكري جميعاً وفي جبهة واحدة ووقت واحد . إن حرية الفكر كما يبين لنا التاريخ والواقع تختلف مضمونها وحدودها حسب الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . لذلك فان الدعوة لحرية الفكر لا يجوز ان تنفصل عن السعي لاصلاح هذه الاوضاع . ليس هناك نضال لحرية الفكر وحدها . هذا سخف او تضليل . وليس هناك من نضال فكري قائم بذاته . يجب ان يشمل النضال في الوقت نفسه القوى الاستعمارية والرجعية والمصالح الطبقية على السواء . إن الجهد الفكري وحده لا قيمة لنضاله ولا جدوى . فالنضال بالقلب هو اضعف الايمان كما يقال ولا يمكن لحرية الفكر ان تقوم على اساس ثابت وطيد الا بالعمل لها في مختلف الميادين معاً .

ولا بد ثالثاً : من توفير الشروط المادية كي يتمكن المفكر من تحقيق حريته . ففي كل مجتمع تسود شروط مادية معينة يخضع لها جميع الافراد وبينهم اهل الفن والقلم ايضاً . وهذه الشروط المادية يمكن ان يكون لها تأثير كبير في حرية الفكر . فاذا اردنا ان نتمتع بحرية الفكر وجب علينا ان نسعى قبل كل شيء الى تنظيم هذه الشروط على اسس قويمة ، عادلة ، واعني بذلك مثلاً ان يتفق اهل القلم على تقرير الاجور ،

« التتمة على الصفحة ٧٠ »

اسبوع الأدبـــاء العرب في لبنـــان

« تتمة المنشور عـلى الصفحة ٣ »

وتحول من دون انسرابها الينا الحدود ، اذا ما عولجت خارج الحدود ، وتنتظرها النار . هي هذه التي تنكروا بسبب بعضها لجـبران وكفروا الريحاني . عادات موروثة وتقاليد مهترئة واشيـاء اخر .

وما دام الأديب العربي محروما من ارتياد كل المطلات ، مـا دام مكرها على التزام الصمت حيال بعض نشاط الفكر ، ما دام باب الاجتهاد موصداً من دونه ، فلن يستطيـع ان يؤدي رسالته ، وان يخلق اي اثر مرموق . بل سيظل يشعر في اعماقه حتى عندما يعالج من القضايا ابعدها عن هذه ، انه خاضع مكبل وهذا الشعور كفيل بان يهيض جناحيه وان يخمد الجذوة في نفسه ويخنق العبقرية .

الاحزاب السياسية تتمتع بحرية الاجـتماع والتظاهر في بعض اقطارها وتطالب بها في الاقطار الاخرى . والنقابات على انواعها تتمتـع بحرية الاجتماع والتظاهر حتى بحرية الاضراب في بعض اقطارنا وتناضل من اجل تحقيقها في الاخرى .

فلا اقل من أن يطالب اهل القلم بحرية التعبير المطلق عن الفكر ضمن حدود الاخلاق او يظل الأدب العربي مؤرجحاً بين عهدي الطفولة القاصرة والشيخوخة العاجزة لا يبلغ شبابه ابداً .

ولتكن المطالبة جهاداً . إن لأنفسنا علينا ولامتنا وللانسانية حقـاً ، وان علينا واجباً هو واجب النطق فلنضطلع بمسؤوليتها . انه لمن بوادر النصر ان يستشهد كتاب فيحرق وان يقاضى اديب وتنهشه اظافر الغوغاء .

ولكن كيف نوفق بين المطالبة بالحرية ومبدأ الانضواء او الالتزام بدعوى خلق أدب حي ينتصب مدافعاً عن طبقة او عن وطن او عـن دين او عن فلسفة ؟

اذا كان المقصود من الالتزام ان يتمرس الأديب بمجتمعه وان يعي كل مشاكله وان يعبر عن الحقيقة ، فلا تعارض بين الحرية والالتزام . لنع ، قبل ان نتساءل هل ينبغي لنا في الأدب اتباع خطة الالتزام ان التعبير عن الحقيقة الـتزام بذاته ، وان الأدب الذي لا يعـبر عن الحقيقة لا يكون حراً ، وان حرية تمويه الحقيقة ليست حرية بل فوضى .

اما اذا كان المقصود من الالتزام ان يخضع الأديب لتوجيه مـن الخارج يأمره فيأتمر ، فلا . شرط صحة الأدب ان يظل الأديب حراً يلزم او لا يلزم نفسه ، ينضوي او لا ينضوي ، لينضو او يتراجع عـن انضوائه . المهم ان يظل منضوياً تحت راية الحقيقة . وكل الـتزام آخر وطنياً كان او دينياً او فلسفياً ضئيل بالنسبة الى هذا الالتزام الحر .

ويبقى ان التعبير عن قضية معينة ليس هو الذي يجعل مـن الانشاء ادباً . قد نجد ادباً في انتاج ملتزم او غير ملتزم ، وقد لا نجد ادباً فيهما ، بل نجد ادباً في انتاجين ينضوي الواحد منهما لخدمة عكس مـا ينضوي لخدمته الاخر يكون الأدب او لا يكـون ..

هذه هي اهم القضايا المطروحة عليكم . واذا كنت عبرت عن رأي بصددها فانه لا يلزم احداً . وهكذا ترون اننا ما دعونا كم لمتعة بل لعناء. طويلة هي الطريق وضيق الباب . ولكننا بمحبة دعونا . واني لواثق من انكم بمحبة استجبتم ، ومن اننا سنعمل ونتقصى ونقرر بمحبة .

صلاح لبكي

حرية الفكر

« تتمة المنشور عـلى الصفحة ٩ »

ولا بأس من تسميتها هكذا ، التي يستحقونها مقابل كتبهم ومقالاتهم ومحاضراتهم ثم فرضها على دور النشر واصحـاب الصحف والمجلات والسلطات الحكومية حسب قواعد معينة تدعم بنصوص قانونية .

كذلك ينبغي ان يطالب اهل القلم الحكومات والمجالس النيابية بازالة جميع القيود على حرية الصحافة والنشر والكلام والاجتماع وان يقتصر تدخل الدولة هنا على الحـالات التي يحدث فيها اي اعتداء على كرامة الافراد وشرفهم او اي إضرار بحقوقهم .

ثم ان حرية الفكر لا تتحقق الا اذا توفرت للجميع وسائل الحصول على المعلومات الصحيحة التي يقتضي الحيـلولة دون احتكارها وتوجيهها من قبل اصحاب المصالح . ولذلك يجب على اهل القلم ان يقاوموا سيطرة ارباب المال والدول الاجنبية على الصحف ودور النشر والسينما والاذاعة .

ولا يجوز لأهل القلم ان يهملوا معاهد التعليم . فانه لا يمكن تكوين عقول حرة اذا لم تكن المناهـج الدراسية قوية ولم يتمتع المدرسون بالاستقلال ، ولم تبق المدارس بعيدة عـن الاختلافات الحزبية والطائفية فعلى اهل القلم ان يطالبـوا الحكومات بجعل التعليم العام انموذجاً حياً للتسامح والتجرد ووسيلة فعالة لتحرير الافكار .

واخـيراً اعود فـأقول ان حـرية الفكر ليست هبة تمنـح الى الافراد بـل انهـا صفة يكتسبونهـا بجهودهم الشخصية ، بعد نضال طويل وتضحيات كبيرة . ولا يحق لأي شخص ... ان يطالب الاخرين باحترام آرائـه اذا لم يبرهن على انه هو نفسه يحترمها ويدافع عنها ويعمل بها . لا يكفي ان نمجد حرية الفكر ونتفق على ضرورتها، بـل يجب كذلك ان نعرف كيف نتوصل اليهـا في حياتنا قبل النص عليها في قوانيننا، وكيف نحققها في انفسنا قبل مطالبة غيرنا بها . والامر يتوقف قبل كل شيء على الجهود التي نقوم بها نحن انفسنا . ان حرية الفكر تؤخذ ولا تعطى فهل نحـن مستعدون للنضال ؟

كامل عياد